

التفسير المختصر - سورة يوسف (١٢) - الدرس (٢٤-٠٢) : تفسير الآيات ٤-٥ ، حب الظهور يقصم الظهر !

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-١٠-٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَأَدْخِلُنَا بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الأخوة الكرام، مع الآية الخامسة من سورة يوسف عليه السلام قال تعالى:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتَكَ فَيُكَيِّدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلنِّسَاءِ عَذُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٥)

[سورة يوسف]

أولاً: كثرة الظهور تقصيم الظهور، فأحياناً ينشأ لدى الإنسان رغبة لإظهار ما عنده؛ بيته وأثاثه وثرياته، وسجاده، ومركبته، ورحلاته وعقد قران ابنه، هذه الرغبة غير مشروعة لأن الله تعالى وصف قارون، ماذا فعل؟! خرج على قومه بزینته، قال تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٧٩)

[سورة القصص]

وهناك آية أدق من ذلك، وهي قوله تعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٨٣)

[سورة القصص]

فلا آخرة أحد أثمانها أن الذي يتطلّبها لا يريد علوّا في الأرض، وكل إنسان يتّبع الغلوّ في الأرض إما عن طريق التباكي بمتاعه، يقول الإمام علي كرم الله وجهه: في آخر الزمان؛ قيمة المرء متاعة فقيمتك الاجتماعية تستمدّها من مساحة بيتك، ومن ثمن بيتك، ومن موقع بيتك، ومن مركبة سيارتك، ومن حجم دخلك، ومن أناقة بيتك أما القيمة فهي مُنعدمة، لذا كل إنسان حجمه الاجتماعي عند الناس بحجمه المالي.

متى يبحث الإنسان عن الغلوّ في الأرض؟ إذا أفرط بالبعد عن الله تعالى، ومتى يبحث عن السجدة المديح والسبّدة الثناء؟ ومتى يشعر بنشوة إذا ذُهش الناس بما عنده؛ ماله وأناقة بيته، وطعمه؟! هذه الأعراض التي تقام بالفنادق وتتكلّف عشرات الملايين، لماذا هي؟ قال تعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٨٣)

[سورة القصص]

كل إنسان أكرمه الله بالاتصال به وذاق طعم القرب، يستغنى عن مدح الناس، وحب الظهور.
قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾
﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلنِّسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥)﴾

[سورة يوسف]

لم يقل: رأيتُها، هذا لو كان الشمس والقمر، فكل جمع غير عاقل يجمع جمْع مؤنث، إنما قال رأيتُهم، فالمعنى بالشمس أبوه، وبالقمر أمّه، وبالكواكب أخوته شيءٌ دقيق جداً؛ جيلة النفس الإنسانية فطرت على صفة هي الغيرة، والغيرة في الأساس توظّف في الحق والباطل فلو رأى إنسان رجلاً مؤمناً متوفقاً في إيمانه واستقامته، وعمله ودعوته إلى الله عز وجل فهناك من وظيفتهم الغيرة، فالغيرة إذا اتجهت إلى أعمال الآخرة فهي محمودة، تصبح حينها غبطة، أما إن اتجهت إلى الدنيا تصبح حسداً فأهل الدين يغارون من بعضهم بعضاً، ويتمنّى الذي لا يحظى القرآن أن يحظى، والذي لا يقوم الليل أن يقومه والذي ينفق منه أن ينفق أفالاً، فالغيرة في حفل الدين مطلوبة، والله عز وجل قال:

﴿خَتَامُهُ مِسْكٌ وَّفِي ذَلِكَ فَلَيَتَنَافَسُ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾

[سورة المطففين]

وقال تعالى:

﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلَيَعْمَلُ الْعَامِلُونَ (٦١)﴾

[سورة الصافات]

إلا أن هذه الغيرة هي المحمودة، والنبي عليه الصلاة والسلام سماها بالمجاز الحسد، قال عليه الصلاة والسلام: عن قيس بن أبي حازم قال سمعت عبد الله بن مسعود قال قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْتَيْنِ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَا لَا فَسْلُطَتْ عَلَى هَلْكَتِهِ فِي الْحُقْقَ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا))

[رواه البخاري]

فهذه الجيلة هي في النفس البشرية، وهي أن الإنسان يتمنى أن يكون أخيه، شيء طيب، لكن هذه الجيلة قد تصرّف في الحق، وقد تصرّف في الباطل، وفي الحق مُنافسة، وفي الباطل حسد، والحسد يولد المكائد والمؤامرات.

يبدأ يتمنى زوال النعمة عن أخيه، وأن تتحول إليك، هذا أول مستوى والمُستوى الأعلى يتمنى أن تزول عن أخيك دون أن تصلي إليك والثالثة أخطر: يتحرّك، ويقدم شكوى كي يُضيّط بمخالفته، وهذا يتبع التمني بعمل، والتخطيط له وبسلوك وشكوى وتقرير ووشایة.

فهؤلاء المستويات أحلاهم مر، وهؤلاء إذا رأوا إخوانهم في الضيق فرحوا، والثالثة هي من أشد أنواع الحسد، أما إذا الإنسان غبط أخوه من أجل الآخرة؛ حفظ القرآن، وإيمان قوي، إنسان

طريق، إنشاء مسجد، فهذا كلُّه اسمُه غيْطة وهو مقبول وفضيلة، وهو الذي يُحرِّك الإنسان إلى مرضاعة الله عز وجل، والغيرة في الحق فضيلة فالأية:

﴿تَنَاهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجَعْلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَقْبِنِ﴾ (٨٣)

[سورة القصص]

التعليق العلمي، لما الإنسان يُقوِّس قلبه من الاتصال بالله عز وجل وليس حوله إلا ثناء الناس عليه، يسعى حينها إلى الظهور، بينما حياته كلّها على المظاهر؛ إن في البيت أو في العمل أو في الإنفاق أو الولائم، فالاصل في هذا ثناء الناس عليه في ذوقه وأخلاقه وإنفاقه فهذا مرض خطير، والله عز وجل حينما يعلم من العبد هذا الاتجاه يُخيبُ ظنه كثيراً، يأتي الحسد فيقول لك: به عينٌ الله در الحسد ما أعدْه بدأ بصاحبِه فقتله

فلمّا الإنسان يُحاول الظهور، وإبداء ما عنده فما عليه إلا أن يتحمل حسد الحساد، فالآلية فيها إشارة لطيفة:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيُكَيِّدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلنِّسَاءِ عُدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٥)

[سورة يوسف]

هناك أشخاص يتكلّم في المجالس عن زوجته ! ممتازة خياطة وطبخة وإن كان قليل المروءة قد يتكلّم عن جمالها ! وهذا عن دخله وإنفاقه وزهراته، وعن ولائمه، قال تعالى:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيُكَيِّدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلنِّسَاءِ عُدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٥)

[سورة يوسف]

فالاستنباط الأول من هذه الآية هو: أن لا تُحاول أن تَتَلَوَّ في الأرض عن طريق إظهار ما عندك، أما إذا كان هناك اتصال بالله عز وجل وتجلى على قلب الإنسان، يشعر الإنسان بِغُنى عن مدح الناس له وعن شائِهم، وهذا سر الإخلاص، فهو لا يحتاج إلى ظهور ولا إلى علو ولا إلى مدح، لأنَّه جاءَه من الله تعالى من الطمأنينة والسكينة ما أغناه عن هذه المشاعر المرضية. في أيها الأخوة الكرام، هذه القِصَّةَ منا قلتُ في درسٍ سابقٍ فيها استِبْطَانٌ كثيرة، وفيها حوارات، وموافق، وتحليل، وعقد وحركات، وسرد، وكل شيء في القِصَّةَ يعني قاعدة ينبغي أن تَتَذَكَّرَها في حياتنا.

ملخص هذا الدرس ؛ كثرة الظهور تقْصِمُ الظُّهُورَ، قال تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَّذِينَ نَاهَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍ عَظِيمٍ﴾ (٧)

[سورة القصص]

والإنسان إذا رأى شيئاً جميلاً، و سيارة جميلة، ومكتب فخم، ماذا يفعل ؟ يقول كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة))

وهذه هي السنة، كما أنه يدعوا بالبركة، وفي درس آخر تتابع هذا الموضوع.

والحمد لله رب العالمين